

ISBN 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

(معتمد ومصنف دوليًا)

الرقم الدولي المعياري للمؤتمر



المؤتمر الدولي الحادي عشر للغة العربية

22 - 24 أكتوبر 2025م الموافق 30 ربيع الآخر - 2 جمادى الأولى 1447هـ

دبي - الإمارات العربية المتحدة

الهيئات العربية والدولية أعضاء المجلس الدولي للغة العربية



تمثيلات الأنا والآخر في كتابي "المعذبون في الأرض" لطفه حسين و"معذبو

الأرض" لفرانز فانون: دراسة نقدية مقارنة

د. نوره محمد ماجد الدوسري

المقدمة :

تُعد مسألة تمثيل "الأنا" و"الآخر" من أبرز الإشكاليات التي أثارت اهتمام الأدب والفكر في القرن العشرين، خصوصاً في ظل التحولات الثقافية والاجتماعية التي أعقبت موجات السيطرة الغربية. فالهوية لا تنشأ في فراغ، بل تتكوّن داخل سياق معقّد من الصور والتصورات التي تُصاغ من خلال العلاقة بين الذات والغير. ولا يمكن النظر إلى التمثيل بوصفه مجرد صورة مطابقة للواقع، بل هو بناء رمزي ومعرفي وإيديولوجي يُؤثر في كيفية إدراك الذات لذاتها انطلاقاً من موقعها في مواجهة الآخر. وغالباً ما تُستدعى صورة الآخر لا من أجل تأكيد الذات فقط، بل أحياناً لتفويضها، حين تحمل هذه الصورة تمثيلات تعيد تشكيل وعي الذات تحت وطأة علاقات غير عادلة. فصورة الآخر لا تنفصل عن البنى الثقافية والأنظمة التي تُكرّس التحيز وتُرسّخ مركزية الذات في مقابل تهميش الغير.

ينطلق هذا البحث من محاولة لفهم تمثيلات "الأنا" و"الآخر" في الخطاب الأدبي والفكري، من خلال قراءة نقدية مقارنة بين كتاب المعذبون في الأرض لطفه حسين، ومعذبو الأرض لفرانز فانون. والسؤال الذي يقود هذه الدراسة هو: كيف تتكوّن صورة الذات في ظل التحولات الاجتماعية والثقافية العميقة؟ وكيف عبّر الكاتبان، كل بأسلوبه، عن إشكالات الهوية والانتماء في مجتمعات مرت بمنعطفات فكرية حاسمة؟

تتجلى أهمية هذا البحث في تتبع الاختلافات بين تمثيلات الهوية في النص الأدبي والنص الفكري، ورصد كيف يتشكل وعي الذات في لحظات الانكسار أو التغيّر. ويعتمد في مقارنته على قراءة ثقافية مقارنة تراعي الفروق بين السياقات التي كتب فيها كل من طه حسين وفانون؛

فبينما قدّم حسين نصًّا أدبيًّا رمزيًّا يعالج قضايا الداخل الاجتماعي والإنساني، جاء خطاب فانون أقرب إلى التحليل الجذري، من موقع المواجهة والتحول.

يحاول البحث التوقف عند صور "الأنا" و"الآخر" كما تتبدى في النصين، مبيِّنًا اختلاف المنطلقات؛ بين رؤية إصلاحية أخلاقية تُعنى بالسؤال عن الداخل كما في مشروع طه حسين، ورؤية صدامية تعيد بناء الذات على وقع الصراع كما لدى فانون. كما يُبرز ما قد يُعدّ ريادة فكرية مبكرة لطه حسين في تناوله قضايا التهميش والهوية، ضمن خطاب نقدي سبق أن يتبلور إطار ما بعد الكولونيالية بصيغته النظرية المعروفة.

أولًا- المعذبون في الأرض: ريادة عربية مبكرة في قضايا ما بعد الكولونيالية

يُعدّ كتاب المعذبون في الأرض لطه حسين علامة فارقة في وعي العرب المبكر بقضايا التهميش والعدالة الاجتماعية. فقد التقط حسين، بحسّه الإنساني العميق، أوجاع من همّشهم الواقع، وكتب عنهم دون تنظير صريح أو انخراط أكاديمي في مفاهيم ما بعد الكولونيالية التي ظهرت لاحقًا، لكنها القضايا ذاتها التي أُطّرت فيما بعد ضمن مفاهيم مثل التمثيل والهوية والمركز والهامش، بوصفها انعكاسات لهيمنة تاريخية تركت أثرها في الثقافة والوعي.

ورغم أنه لم يتكئ على إطار نظري معلن، فإن مشروعه في هذا الكتاب كان واضح النبوة: الوقوف إلى جانب الإنسان المقهور، واستنطاق صوته في قصص لا تكتفي بسرد المعاناة، بل تكشف الواقع الطبقي وتعريّ التفاوت الاجتماعي من الداخل. هكذا، منح طه حسين للمهمّشين فرصة أن يُرى وجعهم، لا من الخارج، بل من عمق معاناتهم اليومية.

في هذا العمل، لا يرسم طه حسين شخصياته على هيئة أفراد معزولين، بل يراهم كأصوات تصرخ بألم مشترك، وجع لا يخص شخصًا بعينه، بل يمتد ليشمل مجتمعاً بأكمله. الفقر، والجهل، والمرض لا تميّز بين أحد، بل تمتد لتخترق كل الطبقات: من القرى النائية إلى قلب المدن، من الأغنياء الذين فقدوا امتيازهم، إلى الطبقة المتوسطة التي بدأت تفقد توازنها تدريجيًّا، حتى أصبح الجميع عرضة للانحدار نحو الحاجة. وقد عبّر حسين عن هذا الوضع حين كتب:

"أصبح فردًا ممتازًا من هذه الطبقة الممتازة، طبقة الموظفين، ولكنه ما زال فقيرًا بئسًا محتاجًا، وما زالت أسرته متوسطة ترد إلى الفقر يوميًا بعد يوم، وتدفع إلى الضيق عامًا بعد عام"¹.

يبني طه حسين نصه على حضور إنساني كثيف، لا يكتفي فيه برسم شخصيات تؤدي دورًا روائيًا تقليديًا، بل يجعلها تنطق بواقع هش وموجع، يعكس عمق التصدع في النظام الاجتماعي. هذه الشخصيات لا تروي فحسب، بل تنقل إحساس الانكسار كما هو، بكل ثقله، لتكشف كيف تخلت البنى المؤسسية عن الفئات المهمشة. ومن خلال تكراره المقصود لحالات المعذبين، يرسم صورة متكاملة لمجتمع يتهاوى من الداخل، صورة لا يمكن فصلها عن تراجع الطبقة الوسطى، واتساع فجوات الأزمات العميقة.

وما يميز هذا الخطاب حقًا هو قدرة حسين على ملامسة المأساة من داخلها، لا من موقع الرصد الخارجي. يتجلى ذلك في وصفه المؤلم: "الشقاء يصب عليه صبا، والبلاء يأخذه من جميع أقطاره، والآلام والنوائب تسعى إليه من كل وجه. نرى البؤس البائس يغمر الكثرة الكثيرة من أهله، فيلبسهم ملابس متصلة لا تقع عنهم في ليل ولا نهار، فهم جائعون عراة جهال أشقياء بهذا كله... وإذا أهله مربع الآفات والعلل والأوبئة"².

عند قراءة خطاب طه حسين إلى جانب خطاب فرانز فانون في معذبو الأرض، يظهر التباين واضحًا بين الأسلوبين، لكن ذلك لا يحجب تقاطعًا عميقًا في الانشغال بالمهمش والإنسان المنسي. طه حسين يقترب من هذا الإنسان بعين هادئة وبنية سردية يغلب عليها البعد الرمزي والبعد الإنساني، بينما يمضي فانون في طريق أكثر حدة، يفتح فيه الأسئلة الكبرى حول الأسباب الجذرية للتمييز، ويوجه إصبع الاتهام إلى النخب والمتفقين، محملاً إياهم عبئًا مضاعفًا: أخلاقياً وفكريًا.

ليس فانون في موقع مناقضة لحسين، بل يبدو كأنه يمسك بالخيط ذاته لكن من طرف آخر. يُكمل ما بدأه حسين، ويأخذ تمثيل الإنسان المهمش إلى أفق مختلف: لا يكتفي بوصف المأساة والتعاطف معها، بل يحاول أن يدفع نحو الفعل، نحو الصدام مع الواقع بدل الوقوف على

¹ طه حسين: المعذبون في الأرض، مؤسسة هنداوي، [د.ب.ط]، المملكة المتحدة، ٢٠١٤م، ص 78

² المرجع نفسه، ص 112-113

أطلاله. وهكذا يصبح عمل فانون صدى غاضبًا، وربما ضروريًا، لمأساة الإنسان التي رسمها طه حسين، لكنه صدى بلغة أخرى؛ لغة لا تنتظر الشفقة، بل تصرّ على المواجهة

حين نعيد النظر في المشروع الفكري لطه حسين ضمن سياقه الأوسع، نلمح أن المعذبون في الأرض لا يُمكن عزله عن رؤيته التي عبّر عنها سابقًا في مستقبل الثقافة في مصر، ذلك الكتاب الذي كتبه في عقب الاستقلال، ووجّه فيه خطابه للنخب والمؤسسات، داعيًا إلى الانفتاح على النموذج الأوروبي كأداة لفهم العصر وتجاوز الركود. لكن المعذبون في الأرض يكشف عن وجه آخر لهذا المشروع، وجه يتّجه بعاطفة صادقة نحو الهامش، حيث لا يظهر حسين كممثل لصوت الدولة، بل كضمير إنساني يستمع لما فاتته أن يُقال، ويتحدث باسم من لم يصل صوته.

يظهر في هذا العمل نضج مختلف؛ لا ينسف ما قبله، بل يكمله، ويضعه في ميزان الوعي بتعقيدات الواقع. ف المعذبون في الأرض لا ينفصل عن مشروع حسين الإصلاحية، بل يكشف حدوده من الداخل، ويضيء مساحة لم يُلقَ عليها الخطاب الرسمي نظرة كافية. إنها لحظة أدبية وإنسانية بامتياز، يحاول فيها حسين أن يمنح الكلمة لمن لم يُدع أصلاً إلى المنبر. وإذا كان فانون قد صاغ لغته من تحت رماد التجربة الجارحة، فإن طه حسين كان قد مهد الطريق بشكل رمزي عميق، وبأسلوبه الخاص، نحو إدراك الذات المهمّشة، ولو من زاوية مختلفة.

ثانيًا- العذاب والأرض بوصفهما مكوّنين لهوية الأنا

في كتاب المعذبون في الأرض لطه حسين ومعذبو الأرض لفانون، تتكوّن ملامح "الأنا" في مشهد معقد تختلط فيه التجربة بالألم، وتتماهى فيه الأرض مع المعاناة، ليتحوّل كلّ من العذاب والمكان إلى معادل رمزي يعيد تشكيل الذات في علاقتها بالآخر. فالعذاب هنا ليس مجرد لحظة قاسية تمرّ، بل هو تجربة متجذرة، تشكّل نسيجًا داخليًا يعكس هشاشة الإنسان ومقاومته في آن. أما الأرض، فهي لا تُقدّم كمجرد مساحة جغرافية، بل كخلفية حيّة للمأساة، وكمرح يحمل بصمتها، تتكوّن فيه الهوية من رماد التهميش.

وتحمل كلمة "العذاب" في السياقين، العربي لدى حسين والفرانكفوني عند فانون، دلالات تتجاوز المعنى الظاهر للألم والمعاناة، لتصبح مفتاحًا لفهم هوية مهمّشة، تنحت وجودها من التجربة ذاتها. في العربية، نجد أن العذاب في أصله العربي مرتبط بفكرة الجزاء والتطهير

والاختبار³، أي أنه عبور يحمل في طياته أبعادًا أخلاقية وروحية عميقة. أما عنوان فانون Les Damnés de la Terre، فله خلفية ثقافية ثرية، استلهمها من النشيد الأممي الذي نشأ في فرنسا أواخر القرن التاسع عشر، وارتبط بالحركات الاشتراكية والثورية⁴.

يتحول العذاب في النصوص من تجربة شخصية إلى وجع جماعي يعكس مिरًا طويلاً من القهر الطبقي والتهميش المتراكم، وكأنه مصير مشترك لذوات حوصرت بانتماء مشروط تُحدده سلطة الآخر. ليس الأمر مجرد انتقال للألم من الفرد إلى الجماعة، بل هو إعادة تشكيل للعذاب كعلامة على كرامة مهدورة ووعي مطموس، يفتح الباب لإعادة التفكير في علاقة الإنسان بالعالم من حوله.

ويبدو هذا التفاوت بوضوح في دلالة العنوانين: المعذبون في الأرض لطف حسين، ومعذبو الأرض لفانون. فطف حسين يشير إلى عذاب ينمو "في الأرض"، من قلب المجتمع ذاته، من داخل الوطن الذي يفترض أن يحتضن الجميع لكنه في الواقع يهْمش ويقصي. الأرض هنا ليست غريبة أو بعيدة، بل هي البيت الذي ضاق بأهله، والمكان الذي خذلهم. أما فانون، فصاغ عنوانه من منظور مختلف، حيث العذاب لا يحدث فقط في الأرض، بل صادر منها، وكأنها تحولت إلى أداة قهر بحد ذاتها، مغتصبة ومسلوبة، لا تحتوي الذات، بل تطردها. الأرض في خطاب فانون فقدت حيادها، لم تعد مجرد فضاء، بل أصبحت طرفًا في الصراع.

وهنا يتجلى الفارق الجوهرى بينهما: طف حسين يعكس وجعًا اجتماعيًا نابغًا من الداخل، من قلب البنية الاجتماعية المهترئة، بينما فانون يرى في العذاب لحظة وعي، لا تكفي بالبكاء على الأطلال، بل تحرّض على النهوض والمواجهة. كلاهما يقدم العذاب، لكن أحدهما يكتبه بحبر الخذلان، والآخر بلغة الاسترداد.

طف حسين لا يضع "المعذب" في موقع البطولة أو يجمّله بكلمات منمّقة، بل يقدمه كما هو، إنسانًا مأخوذًا من عمق الألم، لا من منصات السلطة أو زيف المجد، فهو من "أصحاب البؤس

³ ابن منظور: لسان العرب، ج1، مادة: (عذب)، دار صادر، [د.ط.]، بيروت، [د.ت.]، ص585

⁴ انظر: ويكيبيديا، (الأممية)، النسخة العربية، <https://ar.wikipedia.org/wiki/الأممية>، تاريخ الاطلاع:

29 يوليو 2025.

البائس والعذاب الأليم"⁵، الكتابة عن هؤلاء عنده ليست ترفاً، بل ضرورة أخلاقية، وكأنها صرخة صامتة ضد هشاشة المجتمع الذي لا يرى، وضد مؤسسات لم تعرف كيف تحمي الأضعف. في نصوصه، لا يعلو صوت المعاناة، بل ينزف بهدوء، يعبر عن ألم لا يحتاج إلى صخب ليفهم، بل يكفي أن يُروى بصدق.

أما فانون، فالعذاب عنده لا يتوقف عند الشعور، بل يشكّل الذات من جديد. الألم لديه لحظة ميلاد، لا سقوط. في أفسى لحظاته، حين تتحوّل الأرض من بيت وملاذ إلى مساحة مهدّدة، تظهر الحاجة إلى إعادة فهم العلاقة بها، ليس كحيز فقط، بل ككيان ترتبط به الهوية وتتشكل فيه الذات. العذاب في هذا السياق ليس مجرد أثر لما حدث، بل دافع لتكوين جديد، وإعادة صياغة لذاتٍ وُلدت من الألم لا من الراحة.

يُنضح عمق الرؤية حين تتأمل دلالة "الأرض" في العملين. فبالنسبة لفانون، الأرض لا تُختزل في كونها مجرد مكان أو رمز؛ بل هي لبّ الصراع، المساحة التي تنكشف فيها يوماً بعد يوم ممارسات القهر وسلب الكرامة. الأرض عنده ليست حيزاً محايداً، بل شاهدٌ حيٌّ على كل إهانة، على الجوع، على القمع، على إنكار الإنسان لإنسانيته. يكتب فانون بوضوح صادم: "الأرض التي تكفل الخبز، والتي تكفل (الكرامة) طبعاً. ولكن الكرامة التي تكفلها لا شأن لها بكرامة "الشخصية الإنسانية" التي يتحدث عنها الاستعماريون. إن الشعب المستعمر لم يسمع يوماً بهذه الشخصية الإنسانية الخيالية. وما رآه على أرضه بأمر عينه هو أن يعتقل لغير ذنبٍ جناه، وأنه يُضرب لأنه جائع"⁶.

في هذا السياق، تصبح الأرض في خطاب فانون أكثر من مجرد مسرح للمعاناة؛ إنها الجرح المفتوح، المركز الذي تتراكم فيه ممارسات الإذلال، وتُسلب فيه أبسط حقوق الإنسان، ليغدو الحديث عن الكرامة مجرد رفاه لغوي لا يمتّ لواقع المقهورين بصلّة.

أما عند طه حسين، فالأرض لا تُقدّم بوصفها ساحة لصراع خارجي أو مجالاً مسلوباً، بل كرمز داخلي عميق، وطن يعيش فيه الإنسان البسيط، ويعيش فيه أيضاً خذلانه. هي حضن

⁵ طه حسين: المعذبون في الأرض، ص 54

⁶ فرانز فانون: معذبو الأرض، ترجمة: د. سامي الدروبي، د. جمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، ط ٢،

القاهرة، ٢٠١٤م، ص 25

الذات التي تُهمَّش بصمت، لكنها حين تفقد هذا الحزن، تتحول الأرض من مأوى إلى مساحة موحشة تُضاعف الشعور بالغربة داخل الوطن نفسه.

ورغم اختلاف الخلفيات والأساليب بين حسين وفانون، إلا أن الأرض عند كليهما تأخذ بُعدًا يتجاوز المكان؛ تصبح نقطة التقاء الجوع بالكرامة، والانتماء بالإقصاء، في تمثيل معقد لهوية الأنا المهْمَّشة في صراعها مع المكان الذي تحاول التثبيت به واستعادته.

ومن هنا، يتكامل مفهوماً "العذاب" و"الأرض" في الكتابين، ليشكلا مكوّنًا جوهريًا لهوية الذات. فهما ليسا مجرد تفاصيل داخل السرد، بل رموز تُبنى من خلالها العلاقة بين الإنسان ومجتمعه، وسلطته، والآخر الذي يقف في مواجهته. فحين تتحوّل الأرض إلى مسرح للخذلان، ويصبح العذاب لغة الذات المقهورة، لا يمكن فهم الأنا إلا من داخل هذا الألم، ومن خلال محاولتها لأن تُرى وتُفهم وتُعترف بها وسط عالم يتجاهل وجودها.

ثالثًا- إعادة تشكيل الأنا في مواجهة الآخر: بين ثنائيتي الجسد والعقل، والعنف واللاعنف

في تمثيلات الأنا والآخر، تتجلى الذات ككيان ممزق بين وطأة القهر ورغبة المقاومة، موزعة بين الجسد الذي ينطق حين يخفت صوت العقل، وبين خيارات متضادة من العنف واللاعنف تمزق هويتها. هذا الاضطراب الوجودي يتجسد بوضوح في كتابي معذبو الأرض لفانون والمعدّبون في الأرض لطف حسين، حيث تتكثف هذه الثنائيات لتعيد تشكيل الأنا بوصفها ذاتًا محاصرة تحاول أن تستعيد صوتها في وجه آخرٍ مُهيمن.

فالعنف، كما يراه فانون، ليس انفعاليًا عابرًا أو فعلًا همجيًا، بل استجابة حتمية لواقع مشدّد على القمع والإلغاء. إنه ضرورة يفرضها منطق الهيمنة، لا اختيارًا نابغًا من رغبة في الفوضى.

إن "العنف هو السبيل الوحيدة للقضاء على الاستعمار، حيث إن هذا العالم الاستعماري الذي قام على العنف لا يمكن الخلاص منه إلا بالعنف"⁷. في هذا السياق، لا يعود العنف أداة تدمير، بل وسيلة لاستعادة ما سلب من الكرامة والوجود.

⁷ انظر: المرجع نفسه، ص15

ولم يكن هذا الإدراك ناتجاً عن تنظير بارد، بل عن معايشة حية لعطب الذات. فقد رصد فانون، من موقعه كطبيب نفسي في مستشفى البلدية، الآثار النفسية المروعة التي يخلفها القمع طويل الأمد، وكتب: "حين يتجاوز مجموع التهيجات الضارة حدًا معينًا تنهار المواقف الدفاعية للمستعمرين، فنجد عددًا كبيرًا من هؤلاء المستعمرين في مستشفيات الأمراض العقلية... أصبحت هذه الحرب تربة صالحة لانطلاق الاضطرابات العقلية"⁸. هنا لا يعود الجسد مجرد وعاء للألم، بل يتحوّل إلى مساحة يتكثف فيها الانهيار ويعبر عن كينونة لم تُعترف يوماً بحقها في أن تكون.

لهذا يرى فانون أن العنف ليس فعلًا منفصلًا عن الجسد، بل هو امتداد لحقيقته، ولانكساراته. يقول: "محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائمًا، فهو على أي مستوى كان إنما هو إحلال نوع إنساني محل نوع إنساني آخر، إحلالًا كليًا، كاملاً مطلقًا، بلا مراحل انتقال"⁹. لا مجال للتسويات الرمادية في مشهد بهذا العنف؛ فالصراع هنا لا يعيد ترتيب الوضع القائم، بل يهدمه من جذوره. ويضيف: "محو الاستعمار لا يمكن أن يعبر عبورًا دون أن يلاحظه أحد، لأنه يتناول الوجود، لأنه يغير الوجود تغييرًا أساسيًا... يبيت في الوجود إيقاعًا خاصًا يجيء به الرجال الجدد، ويحمل إلى الوجود لغة خاصة وإنسانية جديدة"¹⁰. بهذا التصور، يتحوّل الجسد إلى ساحة تشتبك فيها الكرامة مع الإنكار، ويغدو العنف أداة لولادة الذات من رماد المحو، لا بصفته خيارًا، بل بوصفه حتمية وجودية.

في الجهة الأخرى، يرسم طه حسين صورة للذات تنطلق من وعي عقلي ناقد، لا من ردود فعل جسدية غاضبة. فالإصلاح في نظره لا يُولد من العنف، بل من العلم والعدالة والرحمة الاجتماعية. ولهذا كان ينتقد بشدة كل من يلجأ إلى المواجهة الصدامية كحل سريع. يقول: "أنا مضطر إلى هذا أشد الاضطرار، أراه واجبًا تفرضه الوطنية الصادقة، وتفرضه الكرامة الإنسانية، لا تعصف به العواصف ولا يجري عليه ما جرى على بعض الأمم من هذه الثورات التي لا تبقي على شيء"¹¹.

⁸ المرجع نفسه، ص 201

⁹ المرجع نفسه، ص 39

¹⁰ المرجع نفسه، ص 40

¹¹ طه حسين: المعذبون في الأرض، ص 143

طه حسين يراهن على العقل كأداة للتغيير، ويؤمن بأن البناء البطيء والثابت أكثر نفعاً من الانفجارات العنيفة. في نظره، العنف لا يخلف فقط خسائر جديدة، بل قد يعيد إنتاج ما كان يريد أن يزيله.

هذا الموقف الحذر من العنف يتضح أيضاً حين يُبدي خيبة أمله مما آلت إليه أوضاع الاستقلال، فيقول: "الحزن بعد ذلك البلد الذي كنا نراه أهلاً للاستقلال، فإذا هو يرد عن حقه أعنف الرد وأقساه، إن صوّر شيئاً فإنما يصوّر الجور والغدر والظلم والجور"¹².

ولا يتوقف عند السلطة، بل يوجه نقده أيضاً للطبقة البرجوازية التي تخلّت عن الفقراء، قائلاً: "ثم لا يخطر لأحد منهم... أن بؤس البائسين وإعدام المعدمين لا يجرّ الخزي عليهم بمقدار ما يجر الخزي على وطنهم كله"¹³.

أما فانون، فيقدّم رؤية مغايرة، حيث لا يرى في التغيير السلمي طريقاً ممكناً في ظل واقع مأزوم بالقهر، بل ينطلق من التجربة الحسية للإنسان المقهور، من جوعه وألمه وصمته الجسدي، الذي يتحوّل إلى صرخة. فهو لا يتعامل مع الفقر كفكرة، بل كأثر محفور على الجسد: "فالجماهير في هذه البلاد تكافح فقراً واحداً، وترسم ببطونها الضامرة ما أسماه بعضهم جغرافية الجوع"¹⁴.

ويتجاوز فانون هذا التشخيص إلى نقد الخطابات التي تروّج للاعنف بوصفه حلاً أخلاقياً، معتبراً أن هذه الخطابات ليست دائماً بريئة، بل قد تكون امتداداً لمفاهيم ثقافية تُفرض على الشعوب المقهورة: "إن فكرة اللاعنف هي في حقيقة الأمر من مبتكرات الدفاع الاستعماري، محاولة لتسوية المسألة الاستعمارية على مائدة خضراء قبل التورط في أية حركة لا سبيل إلى تراجعها"¹⁵.

ومن هنا، قد يرى في مواقف أمثال طه حسين نوعاً من الإذعان غير المقصود لخطابات هيمنة ناعمة، تُقدّم باسم التحضر أو الإنسانية، لكنها تخفي استمرار السيطرة.

¹² المرجع نفسه، ص113

¹³ المرجع نفسه، ص108

¹⁴ فانون: معذبو الأرض، ص86

¹⁵ المرجع نفسه، ص59

التوتر بين الرويتين ليس سطحياً؛ طه حسين يراهن على العقل والتنوير، وفانون ينطلق من جسد ينزف ويصرخ. الأول يرى أن التغيير يُصنع بالتراكم والوعي، والثاني يؤمن بأن الصدمة وحدها قادرة على إعادة تشكيل الذات.

وفي نهاية المطاف، تظل الذات في كلا المشروعين مشروعاً في طور التكوين، تحاول أن تتجاوز قهرها، إما بالعلم أو بالواجهة، بالوعي أو بالوجع.

رابعاً- المثقف العربي في خطاب فانون: بين الانتماء والتبعية

يقدم فانون صورة مربكة ومقلقة للمثقف العربي، الذي لا يتحدث بلسانه هو، بل بصوت الآخر، فيبدو كأنه غريب حتى عن قضاياها. هذه الأنا المثقفة تبدو عالقة بين انتماء نظري للجماعة، وولاء ثقافي لمنظومات فكرية فرضها الآخر. لا تتبع من ذاتها، بل تُعاد صياغتها وفق قيم خارجية، فتفقد خصوصيتها وتتحول إلى صدى لاشتراطات النخبة والهيمنة. لهذا، كان فانون قاسياً في نقده للمثقف الذي يتبنى لغة الآخر ثم يدّعي تمثيل الشعب، وكان الكلمات تكفي لتغطية هوة التجربة.

هذا النقد عند فانون لا يتوجّه إلى الأفراد، بل إلى نمط تفكير كامل، وربما كانت نظراته تلك موجّهة بشكل غير مباشر إلى طه حسين، الذي اختار طريق الإصلاح الهادئ والعقلاني، وفضل التاريخ على الفعل، والتأمل على المواجهة. يقول طه حسين في لحظة يأس واضحة: "إلى التاريخ إذن وإلى أحاديث القدماء، فقد ملأ المعاصرون قلوبنا يأساً ونفوسنا قنوطاً... إلى التاريخ إذن لننسى الذي نعيش فيه، وإلى أحاديث القدماء لنتسلى عن سيرة المحدثين"¹⁶.

هذا الانسحاب الرمزي من الحاضر يتكرر في عباراته الأخرى، حين يبوح بشعوره بالعجز: "نشأ هذا الوجوم عن هذا الشعور الحزين المستخذي الذي يجده المصري المثقف حين يرى أماله وأعماله وجهوده... تنهار كأنهم لم ينعموا بهذه الآمال"¹⁷، ويختتمها بمرارة أكثر: "هيهات! هيهات! إنما ذلك تعليل النفس بالأمانى الباطلة، وخداعها بالآمال الكاذبة"¹⁸.

¹⁶ طه حسين: المعذبون في الأرض، ص 108

¹⁷ المرجع نفسه، ص 114

¹⁸ المرجع نفسه، ص 116

يرى فانون أن هذا النوع من الكتابة لا يهزّ منظومات القمع، بل يُطيل عمرها، لأنه يروّج للسكينة بدل الفعل. في أحد تأملاته، يصف ما فعله الكُتّاب العرب بقوله: "رأينا الكُتّاب العرب يتحمسون أشدّ التحمس لتذكير شعوبهم بالصفحات الرائعة من تاريخهم، رداً على أكاذيب المستعمرين، فقام الكُتّاب باستعراض أسماء عظماء الأدب العربي، ويشهدون تاريخ الحضارة العربية بعنف وقوة"¹⁹.

هذه الأنا المثقفة، بحسب فانون، تعيش في تمزّق دائم، فهي تريد أن تنتمي للشعب، لكنها لا تزال تفكر بأدوات الآخر. وها هو يقولها بوضوح: "إن المثقف المستعمر الذي يعود إلى شعبه بواسطة مؤلفات أدبية، إنما يتصرف في الواقع تصرف أجنبي"²⁰. وهذا الانفصال لا يعود فقط إلى الفرد، بل إلى البنية التي ترى أن الثقافة، بمجردّها، قادرة على إثبات الهوية. وفانون يفند هذا التوهم تماماً: "المرء لا يبرهن على وجود أمته بثقافة، بل بخوض المعركة التي يخوضها الشعب... إنك لن تُخجل الهيمنة حين تنشر أمام بصرها الكنوز الثقافية المجهولة"²¹.

وعليه، لا يرى فانون في مشروع طه حسين ما يحدث تغييراً جذرياً، بل يراه جزءاً من خطاب إصلاح يبرهن على التهدئة لا التحوّل. وهو يُحذّر من المثقف الذي يتحدث عن التعايش في عالم لا يعترف بالتوازن إلا حين يُهدّد امتيازَه. يقول فانون: "إن المثقف الذي تبع الاستعماري على مستوى العموميات المجردة، يريد أن يعيش المستعمر والمستعمر في سلام في عالم جديد، ولكن الأمر الذي يعنى عنه، هو أن المسيطر لن يهتمه البقاء ولا التعايش السلمي متى زال الوضع الاستعماري"²².

ويمضي أبعد حين يربط فكرة اللاعنف، كما يتبناها بعض المثقفين، برغبة خفية في حماية مواقعهم لا مواجهة الظلم، ويصرّح بذلك قائلاً: "فكرة اللاعنف في الكفاح القومي هي من الأساس فكرة قامت البرجوازية منادية بها، وهي محاولة لتسوية المسألة على مائدة خضراء قبل التورط في أية حركة لا سبيل إلى تراجعها"²³.

¹⁹ فانون: معذبو الأرض، ص 172-173

²⁰ المرجع نفسه، ص 180

²¹ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

²² المرجع نفسه، ص 46

²³ المرجع نفسه، ص 59

المثقف، في عين فانون، لا يُحاسب فقط على أفكاره، بل على أثره. فهو مسؤول عن الأمة كلها، لا عن ثقافتها فقط، ويقولها بصراحة: "يرى فانون بأن مسؤولية المثقف المستعمر ليست مسؤولية عن الثقافة القومية، بل مسؤولية كلية شاملة عن الأمة بأسرها التي ليست الثقافة إلا جنبًا من جوانبها"²⁴.

وبذلك، يصبح الانخراط الفعلي شرطًا لصناعة الأمل. لا يكفي أن نكتب عن الماضي، بل يجب أن نحول هذه الكتابة إلى مشروع نهوض فعلي، ففانون يقول: "إن المستضعف الذي يكتب لشعبه بوصف الماضي إنما يجب عليه أن يفعل ذلك بغية أن يفتح المستقبل، وأن يهب إلى العمل، ولكنك لا تستطيع أن تقوي الأمل وأن تهب له عمقًا وكثافة ما لم تشارك في العمل"²⁵.

من هنا، لا يكون المثقف مجرد راصد للألم، بل فاعل يواجهه. ويبرز هذا الفارق بين فانون وطه حسين بوضوح حين نقارن نظرتهما لوظيفة الثقافة. فطه حسين يرى في التاريخ وسيلة لإحياء القيم، كما يقول: "كانوا يظنون أو يتركون الناس يظنون أنهم يكتبون التاريخ لا يريدون به إلا كتابة التاريخ، ولكنهم كانوا يضمرون وراء كتابة التاريخ هذا شيئًا آخر، وهو أن يحيوا في نفوس الناس الحرية وحبها، والعدل وإيثاره، والمساواة والحرص عليها." وهذا توجه يُعطي من الرمز على الفعل، ومن الوعي على المواجهة.

لكن فانون لا يكتفي بالسرد أو الحنين، بل يرى في ذلك شكلاً من أشكال التراجع، وتعبيرًا عن فشل الأنا في اتخاذ موقع حقيقي وسط واقع متغير. فالمثقف، حين يتوارى خلف التاريخ أو الثقافة، يهرب من اشتباك مطلوب مع الحاضر.

وهكذا، نصل إلى جوهر المسألة: أزمة انتماء يعيشها المثقف بين جذوره وهويته الأصلية من جهة، وبين طموحه للاعتراف والانخراط في دوائر ثقافية يُهيمن عليها الآخر من جهة ثانية. وهذه ليست ثنائية يمكن حلها، بل صراع داخلي مزمن، تتشكّل منه صورة الأنا المترددة، التي تبحث عن ذاتها بين ماضٍ مجيد وحاضر مضطرب، بين واجب الإصلاح ورغبة الاعتراف.

خامسًا- البرجوازية الوطنية كصورة بديلة للآخر: من اغتراب الذات إلى إعادة إنتاج التهميش

²⁴ المرجع نفسه، ص 188
²⁵ المرجع نفسه، الصفحة نفسها

البرجوازية الوطنية، في نظر كل من طه حسين وفانون، ليست امتدادًا حقيقيًا للأنا الجمعية، بل تمثيل مشوّه لها، قشرة تخفي وراءها التفاوت والتسلّط، وتدّعي أنها تنطق باسم الناس بينما هي في الحقيقة تعيش على حسابهم. هذه الطبقة لا تعبّر عن وعي الجماعة، بل تقف من تهميشها وتضخيم امتيازاتها، فتغدو، في عمقها، أكثر خطرًا من أي خصم خارجي.

فانون لا يتردد في فضح هذه الطبقة بحدة واضحة، ويراهنا عاجزة عن حمل مشروع وطني تحرري. يصفها بأنها: "متخلفة، قوتها الاقتصادية تكاد تكون صفرًا"²⁶، فهي لم تنجح حتى في ترجمة الاستقلال السياسي إلى مشروع حقيقي يخدم الناس. ويرى أن طريقتها في التفكير تشبه عقلية السمسار لا عقلية من يسعى للتجديد²⁷، فهي لا تبتكر ولا تنتج، بل تكتفي بأن تلعب دور الوسيط بين العالم الخارجي وبين الداخل المستهلك.

على الجانب الآخر، يعالج طه حسين هذا التشوّه في تمثيل الأنا من خلال شخصيات قصصية بسيطة لكنها بليغة، تُبرز الانقسام الطبقي من قلب المجتمع. في قصة "صالح"، يقدّمه حسين لا كشخصية متفردة، بل كنموذج مكرر لفئة مسحوقة من الناس لا يكاد أحد يراها، رغم أنها تملأ الحياة اليومية. يقول: "وأنا أزعّم أن قارئ هذا الحديث مهما يكن لا يستطيع أن يقضي يومًا من دهره أو ساعة من يومه دون أن يرى صالحًا هذا الذي لا يجد ما ينفق"، ثم يضيف ساخراً: "لم يوجد صالح قطّ لأنه يملأ المملكة المصرية"²⁸. وكان كثرة وجوده ألغت حضوره من فرط الاعتياد.

في مقابل "صالح"، نجد "أمين" بوصفه رمزًا للطبقة المترفة التي تعيش في وفرة لا تشبه واقع الأغلبية. يقول حسين: "هذا الصبي أو هذا المثال الذي اتفقنا على أن اسمه أمين موجود في كل مكان، ولكنه معدود لا نستطيع إحصاءه"²⁹. هؤلاء القلائل، رغم عددهم المحدود، يحتلون مركز الضوء، في حين يتوارى الفقراء في الظل. ويصف طه حسين هذا التفاوت بمرارة قائلاً: "فأنت تلقى في كل يوم ألف صالح وصالح دون أن تحسّ لوحدٍ منهم خطرًا... وترى أمينًا أو أمينين فيملاً كلّ واحد منهم قلبك وعقلك"³⁰.

²⁶ المرجع نفسه، ص25

²⁷ المرجع نفسه، ص15

²⁸ طه حسين: المعذبون في الأرض، ص18

²⁹ المرجع نفسه، ص18

³⁰ المرجع نفسه، ص19

فانون بدوره لا يرى في هذه الطبقة سوى قشرة جديدة تغلف نفس البنية الاقتصادية القديمة، ويقول: "البرجوازية الوطنية لا تملك رؤوس أموال كبيرة، وتظل الأمور تسير على ما كانت عليه في عهد الاستعمار"³¹. هي طبقة لا تملك مشروعاً حقيقياً، بل تستهلك وتربح وتعيد إنتاج نفس العلاقات القديمة تحت مسميات وطنية.

ومع تفاقم التفاوت، يعجز هؤلاء المترفون حتى عن فهم بؤس الآخرين. يكتب طه حسين بأسى: "ولولا هؤلاء الفقراء الأشقياء لكانت الإنسانية خليقة أن يُنظمها أولئك المترفون وحدهم... وهم لا يسمعون أنينهم، والعطف لا يعرفونه"³²، ثم يُكمل بكلمات أكثر قسوة: "وما أعلم أن أغنياءنا مع كثرة ما يملكون قد بذلوا عُشر ما عليهم مما يملكون ولا يستحيون لهذا الجيل من المصريين أن يُوصم في أعين الأجنبي"³³.

ويُحدّر فانون من هذه الطبقة التي يراها غير مؤهلة لبناء أمة حقيقية، فيقول: "تتكشف عاجزة عن تحقيق القومية، عاجزة عن بناء الأمة على أسس خصبة وطيدة مثمرة"³⁴، هي مشغولة بتكديس الأرباح واقتناء الفيلات والسيارات، دون أن يكون لها دور فعلي في بناء المجتمع³⁵. ويذهب أبعد من ذلك حين يصفها بأنها: "ثغرةً يمكن للاستعمار الجديد التسلل من خلالها"³⁶، وكأنها باب مفتوح أمام تكرار السيطرة، ولكن بأقنعة جديدة.

ولا يغفل فانون أثر هذه الطبقة على الوعي الجماعي، إذ يقول إن تراجع هذا الوعي لم يكن بسبب الاستعمار وحده، بل لأن: "البرجوازية الوطنية تولت دور الحارس الأمين لفقر الشعب وبؤسه"³⁷، بل إن نعمة الاستقلال، كما يصفها، "تنقلب إلى لعنة، حين يُطلب من الجائعين أن يتقشفوا، ومن المنهكين أن يعملوا عملاً جباراً"³⁸.

هنا لا تعود البرجوازية مجرد فئة اجتماعية، بل صورة داخلية لـ "الأخر"، تعيش بيننا لكنها تقف على الضد منا، تتحدث باسم الناس بينما تفصلهم عن حقوقهم وأحلامهم. طه حسين حين

³¹ فانون: معذبو الأرض، ص126

³² طه حسين: المعذبون في الأرض، ص106

³³ المرجع نفسه، ص107

³⁴ فانون: معذبو الأرض، ص16

³⁵ المرجع نفسه، ص15-16

³⁶ المرجع نفسه، ص17

³⁷ المرجع نفسه، ص87

³⁸ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

يسلّط الضوء على الفقر والتفاوت، يلتقي من حيث لا يقصد مع فانون، الذي يرى أن هذه الطبقة تعيد إنتاج السيطرة القديمة لكن بوجه جديد.

كلاهما، كلٌّ من موقعه، يكشف زيف هذا التمثيل الذي يتقمص صوت الأنا، لكنه في حقيقته يعمل على تغييبها. فتصبح الأنا، بكل ما تحمله من طموحات وألم، رهينة لصوت لا يُشبهها، ولا ينتمي لها.

الخاتمة:

كشفت هذه الدراسة أن تمثيلات الأنا والآخر في المعذبين في الأرض لطف حسين ومعذبو الأرض لفانون لا تُبنى بوصفها مفاهيم مجردة، بل تتجلى في صور حية ومحمّلة بالمعاناة، تعكس توتر الذات في مواجهة الظلم، والآخر في أشكاله المتعددة. لم تكن الأنا في هذين النصين صوتاً مستقلاً وواضحاً، بل جاءت ممزقة، مهمّشة، وغالباً بلا لغة. ظهرت كأجساد مكلومة، أو كأصوات غائبة، تبحث عن معنى في عالم لا ينصفها.

وقد أظهرت هذه القراءة عدداً من النتائج المفصلية:

- بدت تمثيلات الأنا في كتاب طه حسين على هيئة ذوات صامتة ومُنتهكة، لا تملك أدوات التعبير، وتُترك لمصيرها بين الفقر والخذلان، في مقابل "آخر" مترف، مرئي، ومهيمن.
- أما في خطاب فانون، فالأنا تتكوّن بفعل المقاومة، وتلجأ للجسد بوصفه وسيلة لاستعادة الصوت، بينما يظهر الآخر في هيئة أنظمة داخلية تنطق باسم الجماعة لكنها تفككها من الداخل.
- وُصفت البرجوازية الوطنية في كلا الخطابين كصورة زائفة للأنا: تتحدث باسم الشعب، لكنها تعمل على إقصائه، تمثّل الداخل، لكنها تنفصل عنه في الوعي والسلوك، فتغدو "آخرًا" يتخفى بجلد الذات.
- لم تُصوّر العلاقة بين الأنا والآخر بوصفها ثابتة، بل جاءت متغيرة، مشحونة بالتوتر، ومتداخلة إلى حدّ يصعب معه الفصل بينهما، وكأنّ الآخر أحياناً يولد من قلب الذات حين تفقد وعيها الجمعي.

إن تمثيلات الأنا والآخر كما ظهرت في أعمال حسين وفانون، لم تكن مجرد مفاهيم فكرية، بل انعكاسات لوعي مأزوم يبحث عن مكانه. وبين الحضور والغياب، الصمت والانفجار، الجسد والعقل، تتجلى الذات بوصفها مشروعاً مفتوحاً، لا يتكوّن إلا عبر مساءلة الآخر، ومساءلة تمثيلاته. لهذا، يصبح فهم هذه الصور ليس فقط مدخلاً لفهم النص، بل نافذة على التحولات العميقة في الوعي الإنساني والاجتماعي

الهوامش